

النحو في تفسير الطبري

الدكتور محمد شبكه
الأستاذ المساعد بالكلية

إن الدارس لتفسير الطبري يرى بوضوح اهتمام الطبري بالنحو وتمكنه منه ودقة تطبيقه لمباحثه وأثرها في تفسير آيات القرآن الكريم والكشف عن معاني هذا الكتاب الذي أنزل بلسان عربي مبين .

والمصادر التي استقى منها الطبري الآراء النحوية في تفسيره : هي القواعد التي استنبطها علماء مدرسة البصرة وعلماء مدرسة الكوفة ، ومن المعلوم أن البصريين لهم السبق في هذا المجال فهم الذين أسسوا علم النحو وتعهده بالراية قرابة قرن كانت الكوفة منصرفة عنه برواية الأشعار والأخبار والميل إلى التندر بالطرائف من الملح والنوادر ثم تكاتف الفريقان على استكمال قواعده واستحبابها التنافس الذي جد بينهما واستحرت ناره ردحا من الزمن يزيد على مائة سنة خرج بعدها هذا الفن تام الأصول كامل العناصر وانتهى الاجتهاد فيه حينذاك التأم عقد الفريقين في بغداد فنشأ المذهب البغدادي وقد اعتمد على الترجيح بين الفريقين ثم شع نور هذا العلم في سائر البلاد الإسلامية ^(١) .

ولقد درس الطبري آراء المدرستين وعاصر كثيرا من رجالها وعاش في بغداد ^(٢) . أهمية النحو في الكشف عن معاني القرآن :

يعلن الطبري عن حاجته إلى النحو واضطراره إليه في الكشف عن معاني القرآن وذلك عقب بيان أوجه الإعراب في قوله تعالى من سورة الفاتحة : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) حيث يقول : (وإنما اعترضنا بما اعترضنا في ذلك من بيان وجوه إعرابه وإن كان قصدنا في هذا الكتاب الكشف عن تأويل آي القرآن - لما في اختلاف وجوه إعراب ذلك من اختلاف وجوه

(١) نشأة النحو ص ٢٦ .

(٢) ولد الطبري في نهاية مائتين وأربع وعشرين للهجرة في بلدة : آمل من إقليم طبرستان من بلاد الفرس وعاش في بغداد وتوفي بها في أوائل القرن الرابع الهجري سنة ثلاثمائة وعشر وقد كتبت ترجمة حياة الطبري وثقافته في بداية مقالنا : اللغة في تفسير الطبري في العدد الثامن من هذه المجلة .

تأويله فاضطرتنا الحاجة إلى كشف وجوه إعرابه لتتكشف لطالب تأويله ^(١) وجوه تأويله على قدر اختلاف المختلفة في تأويله وقراءته ^(٢) .

المصطلحات النحوية :

يبدو أن المصطلحات النحوية في هذه الفترة لم تكن قد استقرت فقد كان النحو لا يزال يتدرج في أطواره نحو النضوج والاكتمال .

ومن هذه المصطلحات : (حروف الجر) فقد كان الطبرى يطلق عليها حروف الصفات تارة ، وحروف المعاني تارة أخرى وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) ^(٣) حيث يقول : فإن قال قائل : (رأيت قوله : وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ) ؟ فكيف قيل (خلوا إلى شياطينهم) ولم يقل : خلوا بشياطينهم ؟ فقد علمت أن الجارى بين الناس فى كلامهم (خلوت بفلان) أكثر وأفشى من : (خلوت إلى فلان) .

قيل : قد اختلف فى ذلك أهل العلم بلغة العرب فكان بعض نحوي البصرة يقول : يقال خلوت إلى فلان إذا أريد به خلوت إليه فى حاجة خاصة لا يحتمل - إذا قيل كذلك - إلا الخلاء إليه فى قضاء الحاجة فأما إذا قيل : خلوت به احتمل معنيين : أحدهما : الخلاء به فى الحاجة والآخر فى السخرية به فعلى هذا القول : (وإذا خلوا إلى شياطينهم) لا شك أفصح منه لو قيل : (وإذا خلوا بشياطينهم) فهذا أحد الأقوال .

والقول الآخر : أن يوجه معنى قوله : (وإذا خلوا إلى شياطينهم) وإذا خلوا مع شياطينهم إذ كانت حروف الصفات يعاقب بعضها بعضا .

وأما بعض نحوي الكوفة فإنه كان يتأول أن ذلك بمعنى : وإذا القوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا صرفوا خلاءهم إلى شياطينهم - فيزعم أن الجالب لإلى المعنى الذى دلَّ عليه الكلام من انصراف المنافقين عن لقاء المؤمنين إلى شياطينهم خالين بهم لاقوله : (خلوا) وعلى هذا التأويل لا يصلح فى موضع (إلى) غيرها لتغير الكلام بدخول غيرها من الحروف مكانها .

(١) التأويل والتفسير : بمعنى واحد عند الطبرى .

(٢) التفسير : ١٨٤/١ ط دار المعارف .

(٣) من سورة البقرة آية رقم (١٤) .

وهذا القول عندى أولى بالصواب لأن لكل حرف من حروف المعانى وجهها هو أولى به من غيره فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها (ولإلى) فى كل موضع دخلت فيه من الكلام حكم وغير جائز سلبها معانيها فى أماكنها (١) .
فقد رأينا كيف عبر الطبرى عن حروف الجر بحروف الصفات مرة وبحروف المعانى مرة أخرى .

كما يعبر كذلك عن الحال (بالقطع) كما جاء فى تفسيره لقوله تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) (٢) حيث يقول : وقوله (هُدًى) يحتمل أوجه من المعانى : أحدهما أن يكون نصبا لمعنى (القطع) من الكتاب لأنه نكرة والكتاب معرفة فيكون التأويل حينئذ : ألم ذلك الكتاب هاديا للمتقين وذلك مرفوع ب (ألم) (وآلم) به والكتاب نعت لذلك .

وقد يحتمل أن يكون نصبا على القطع من راجع ذكر الكتاب الذى فى (فيه) فيكون معنى ذلك حينئذ : ألم الذى لا ريب فيه هاديا (٣) الى آخر ما قاله .

أما المفعول لأجله فتارة يسميه منصوبا على التفسير للفعول . وذلك كما يقول فى تفسير قوله تعالى : (يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ) (٤) ، وإنما نصب قوله : (حَذَرَ الْمَوْتِ) على نحو ما تنصب به التكرمة فى قولك : زرتك تكرمة لك ، تريد بذلك : من أجل تكرمتك وكما قال جل ثناؤه : (ويدعوننا رغبا ورهبا) (٥) . على التفسير للفعول (٦) .

وتارة يسميه منصوبا على الفعل وذلك فى تفسيره لقوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ) (٧) حيث يقول : ونصب (ابْتِغَاءَ) بقوله : (يَشْرِي) فكأنه قال :

(١) التفسير : ٢٩٩/١ ط دار المعارف .

(٢) من سورة البقرة آية رقم (٢) .

(٣) التفسير : ٢٣٠/١ - ٢٣١ ط دار المعارف .

(٤) من سورة البقرة آية رصم (١٩) .

(٥) من سورة الأنبياء آية رقم (٩٠) .

(٦) التفسير : ٣٥٤/١ ط دار المعارف .

(٧) من سورة البقرة آية رقم (٢٠٧) .

ومن الناس من يشري نفسه من أجل ابتغاء مرضاة الله ثم ترك من أجل وعمل فيه الفعل وقد زعم بعض أهل العربية أنه نصب ذلك على الفعل (يَشْرِي) كأنه قال : لا ابتغاء مرضاة الله فلما نزع اللام عمل الفعل : ومثله : (حَذَرَ الْمَوْتِ) ^(١) .

ثم يعبر الطبري عن (الصرف) بالإجراء ومثال ذلك ما يذكره عند تفسيره لقوله تعالى : (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) ^(٢) ، حيث يقول : فقرأ ذلك عامة القراءة بفتح الراء من أصغر وأكبر على أن معناهما الخفض عطفاً بالأصغر على الذرة وبالأكبر على الأصغر ثم فتحت راؤهما لأنها لا يُجريان ^(٣) . يقصد بذلك لا ينصرفان .

كما يعبر عن التفسير بالمكنى وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) ^(٤) حيث يقول : وقرأه بعض قراءة الكوفيين (ارْجِهْ) بترك الهمزة وتسكين الهاء على لغة من يقف على الهاء في المكنى في الوصل إذا تحرك ما قبلها ^(٥) . كما عبر الطبري عن البدل بالترجمة ^(٦) وغير ذلك من المصطلحات التي لم تكن قد أخذت شكلها الأخير في هذه الفترة .

الطبري البدائي المنهج :

يستعرض الطبري آراء البصريين والكوفيين في بيان أوجه الإعراب ثم يرجع ما يراه دون تعصب لأى منها فن الأمثلة التي رجع فيها مذهب البصريين ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى : (فَإِذَا أَقْسَمْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ) ^(٧) حيث يقول : ثم اختلف أهل العربية في عرفات والعملة التي من أجلها صرفت وهي معرفة وهل هي اسم لبقعة واحدة أم هي الجماعة بقاع ؟

(١) التفسير : ٢٤٦/٤ ط دار المعارف .

(٢) من سورة يونس آية رقم (٦١) .

(٣) التفسير : ٢١٧/٢٥ ط دار المعارف .

(٤) من سورة الاعراف آية رقم (١١١) .

(٥) التفسير : ٢٠/٢٣ ط دار المعارف .

(٦) التفسير : ١٢٩/٧ ط دار المعارف .

(٧) من سورة البقرة : آية رقم (١٩٨) .

فقال بعض نحوي البصريين : هي اسم كان لِحِجَاعَةٍ مثل : (مسلمات ومؤمنات سميت به بقعة واحدة فصرف لما سميت به البقعة الواحدة إذ كان مصروفا قبل أن تسمى به البقعة تركا منهم له على أصله لأن التاء فيه صارت بمنزلة الياء والواو في مسلمين ومسلمون لأنه تذكيره وصار التنوين بمنزلة النون فلما سمي به ترك على حاله كما يترك المسلمون إذا سمي به على حاله قال ^(١) : ومن العرب من يصرفه إذا سمي به ويشبه التاء بهاء التأنيث وذلك قبيح ضعيف واستشهد بقول الشاعر :

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتٍ وَأَهْلِيهَا بِيَثْرَبَ أَذْنَى دَارَهَا نَظَرَ عَالِي ^(٢)
ومنها من ينون : أذرعات وكذلك عانات وهو مكان .

وقال بعض نحوي الكوفيين : إنما انصرفت عرفات لأنهن على جماع مؤنث بالتاء قال : وكذلك ما كان من جماع مؤنث بالتاء ثم سميت به رجلا أو مكانا أو أرضا أو امرأة انصرفت قال : ولا تكاد العرب تسمى شيئا من الجماع إلا جماعا ثم تجعله بعد ذلك واحدا . وقال آخرون منهم : ليست عرفات حكاية ولا هي اسم منقول ولكن الموضع مسمى هو وجوانبه بعرفات ثم سميت به البقعة اسم الموضع ولا ينفرد واحدها قال : إنما يجوز هذا في الأماكن والمواضع ولا يجوز في غيرها من الأشياء .

قال : ولذلك نصبت العرب التاء في ذلك لأنه موضع ولو كان محكيا لم يكن ذلك فيه جائزا لأن من سمي رجلا (مسلمات أو مسلمين) لم ينقله في الإعراب عما كان عليه في الأصل فلذلك خالف : عانات وأذرعات ما سمي به من الأسماء على جهة الحكاية .

وفي النهاية يعلن الطبري عن تأييده لرأى البصريين فيقول : وأولى الأقوال بالصواب في ذلك عندي ان يقال : هو اسم لواحد سمي به جماع فاذا صرف ذهب مذهب الجماع الذي كان له أصلا وإذا ترك صرفه ذهب به الى أنه اسم لبقعة واحدة معروفة فترك صرفه كما يترك صرف أسماء الأمصار والقوى والمعارف ^(٣) .

(١) هو قول الأخفش .

(٢) البيت لامرئ القيس - تنورتها : نظرت إليها من بعد - أذرعات : بلد في أطراف الشام - يثرب : اسم لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم - أذنى : أقرب - عال : عظيم الارتفاع والامتداد .

(٣) التفسير : ١٧٠/٤ وما بعدها ط دار المعارف .

وفى تفسيره لقوله تعالى : (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ) (١) .

يقول : واختلف أهل العربية فيمن عنى بالهاء والميم اللتين فى قوله : (وملائهم) فقال بعض نحوي البصرة : عنى بهما الذرية وكأنه وجه الكلام إلى (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأ الذرية من بنى إسرائيل) . وقال بعض نحوي أهل الكوفة : عنى بهما فرعون قال : وإنما جاز ذلك وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر بخوف أو سفر أو قدوم من سفر ذهب الوهم إليه وإلى من معه وقال : ألا ترى أنك تقول : قدم الخليفة فكثير الناس تريد من معه وقدم فغلب الأسعار لأنك تنوى بقدومه قدوم من معه قال : وقد يكون أن تريد (فرعون) آل فرعون وتحذف الآل فيجوز كما قال : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) (٢) يريد أهل القرية والله أعلم .

ثم يختار الطبرى من الرأيين رأى البصريين فيقول : وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصواب قول من قال : (الهاء والميم) عائدتان على (الذرية) ووجه معنى الكلام إلى أنه : على خوف من فرعون وملأ الذرية لأنه كان فى ذرية القرن الذين أرسل إليهم موسى من كان أبوه قبطيا وأمه إسرائيلية فن كان كذلك منهم كان مع فرعون على موسى (٣) .

ومن الأمثلة التى رجع فيها الطبرى مذهب الكوفيين على البصريين ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى : (حَرَّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمُفَوَّذَةُ وَالتَّمَرْدِيُّ وَالتَّنَطِيحُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ) (٤) ، حيث يقول : وأصل النطيحة : المنطوحة صرفت من (مفعولة) إلى (فعيلة) .

فإن قال قائل : وكيف أثبتت (الهاء هاء التأنيث) (٥) فيها وأنت تعلم أن العرب لا تكاد تثبت (الهاء) فى نظائرها إذا صرفوها صرف النطيحة من مفعول إلى فعيل إنما تقول : لحية دهن وعين كحيل وكف خضيب ولا يقولون : كف خضيبة ولا عين كحيلة .

(١) من سورة يونس آية رقم (٨٣) .

(٢) من سورة يوسف آية رقم (٨٢) .

(٣) التفسير : ١٦٦/١٥ - ١٦٧ ط دار المعارف .

(٤) من سورة المائدة آية رقم (٣) .

(٥) بقصد الطبرى بها التأنيث : تاء التأنيث المربوطة التى جاءت فى صورة الهاء .

قيل : قد اختلف أهل العربية في ذلك .
 فقال بعض نحوي البصرة : أثبتت الهاء فيها أعنى في (النطيحة) لأنها جعلت كالاسم
 مثل : الطويلة والطريقة .
 فكان قائل هذا القول : وجه النطيحة إلى معنى الناطحة .
 فتأويل الكلام على مذهبه : وحرمت عليكم الميتة نطاحا كأنه عني : وحرمت عليكم
 الناطحة التي تموت من نطاحها .

وقال بعض نحوي الكوفة : إنما تحذف العرب الهاء من الفعلية المصروفة عن المفعول إذا
 جعلتها صفة لاسم قد تقدمها فتقول : رأيت كفا خضيبا وعينا كحिला أما إذا حذفت الكف
 والعين والاسم الذي يكون فعيل نعتاها واجتزءوا بفعيل منها أثبتوا فيه هاء التانيث ليعلم بثبوتها
 فيه أنها صفة للمؤنث دون المذكر فتقول : رأينا كحيلة وخضيبية وأكيلة السبع قالوا : ولذلك
 أدخلت الهاء في النطيحة لأنها صفة المؤنث ولو أسقطت فيها لم يُدْرَ أهي صفة لمؤنث أو
 مذكر . ثم يعرب الطبرى عن اختياره لرأى الكوفيين فيقول : وهذا القول هو أولى الأقوال في
 ذلك بالصواب لشائع أقوال أهل التأويل بأن معنى النطيحة : المنطوحة ^(١) معللا ذلك
 الاختيار والترجيح بأنه يوافق ما يذهب إليه رجال التفسير وهم في نظره أعلم الناس بمقاصد
 كتاب الله عز وجل .

ومن الأمثلة التي يرجح فيها الطبرى مذهب الكوفيين على البصريين كذلك ما ذكره في
 تفسير قوله تعالى : (فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) ^(٢) حيث يقول عقب عرضه لآراء
 أهل التأويل : واختلف أهل العربية في ذلك نحو اختلاف أهل التأويل فقال بعض نحوي
 البصرة : معنى ذلك فستبصر ويبصرون أيكم المفتون وقال بعض نحوي الكوفة : بأيكم
 المفتون ها هنا بمعنى : الجنون وهى في مذهب الفتون كما قالوا : ليس له معقول ولا معقود
 قال : وإن شئت جعلت بأيكم فى أيكم فى أى الفريقين المجنون قال : وهو حينئذ اسم ليس
 بمصدر .

ثم يرجح الطبرى رأى الكوفيين فيقول : وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصواب قول من

(١) التفسير : ٩٩/٩ ٥٠٠ ط دار المعارف .

(٢) من سورة (ن) آية رقم (٥٠٤) .

قال : معنى ذلك بأيكم الجنون ووجه المفتون إلى الفتون بمعنى المصدر لأن ذلك أظهر معانى الكلام إذا لم ننو إسقاط الباء وجعلنا لدخولها وجها مفهوما وقد بينا أنه غير جائز أن يكون فى القرآن شىء لا معنى له ^(١)

وأحيانا يذكر الطبرى رأى رجال المدرستين دون ترجيح بينهما ومن ذلك ما جاء فى تفسيره لقوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) ^(٢) حيث يقول : واختلف أهل العربية فى علة ترك إجراء ^(٣) مثنى وثلاث ورباع وهى ترجمة ^(٤) أجنحة وأجنحة نكره فقال بعض نحوي البصرة ، ترك إجراءهن لأنهن مصروفات عن وجوههن وذلك أن : مثنى مصروف ^(٥) عن اثنين وثلاث مصروف عن ثلاثة ورباع عن أربعة فصرف نظير عمر وزفر إذ صرف هذا عن عامر إلى عمر وهذا زافر إلى زفر وأنشد بعضهم فى ذلك :

ولقد قتلتم ثناء وموحدا وتركت مرة مثل أمس المدبر
وقال آخر منهم : لم يصرف ذلك لأنه يؤهم به الثلاثة والأربعة قال : وهذا لا يستعمل إلا فى حال العدد .

وقال بعض نحوي الكوفة : هن مصروفات عن المعارف لأن الألف واللام لا تدخلها والإضافة لا تدخلها قال : ولو دخلتها الإضافة والألف واللام لكانت نكره وهى ترجمة عن النكرة قال : وكذلك ما كان فى القرآن مثل : (أن تقوموا لله مثنى وفردى) ^(٦) وكذلك وحاد وآحاد وما أشبهه من مصروف العدد ^(٧) .

(١) التفسير ٢٩/٢٠ ط مصطفى الحلبى .

(٢) من سورة فاطر آية رقم (١) .

(٣) إجراء : صرف .

(٤) ترجمة : يدل .

(٥) مصروف : معدول .

(٦) من سورة سبأ الآية رقم (٤٦) .

(٧) التفسير : ٢٢/١١٤ ط مصطفى الحلبى .

وفى بعض الأحيان يذكر الطبرى رأى الكوفيين ^(١) وحدهم ويرتضيه وكذلك يفعل مع نخاة البصرة ^(٢) .

وأحيانا يرفض الرايين جميعا ويحتكم إلى الأشهر من لغة العرب ومن ذلك ما يذكره فى تفسيره لقوله تعالى : قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَأَعَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ^(٣) يقول : وقوله : (لَأَعَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) يقول : لا مانع اليوم من أمر الله الذى قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك إلا من رحمنا فأنقذنا منه فإنه الذى يمنع من شاء من خلقه ويعصم .

فَمَنْ فى موضع رفع لأن معنى الكلام : لا عاصم يعصم اليوم من أمر الله إلا الله وقد اختلف أهل العربية فى موضع (من) فى هذا الموضع .

فقال بعض نحوي الكوفة : هى فى موضع نصب لأن المعصوم بخلاف العاصم والمرحوم معصوم قال : كأن نصبه بمتزلة قولهم : (ما لم به من علم إلا اتباع الظن) ^(٤) ومن استجاز : (اتباع الظن) والرفع فى قوله :

وَبَلَدٌ لَيْسَ بِهَا أُنَيْسٌ إِلَّا الْيَعْفِيرُ وَإِلَّا الْعَيْسُ ^(٥)
لم يحزله الرفع فى (من) لأن الذى قال : (إلا اليعافير) جعل أنيس البر اليعافير وما أشبهها وذلك قوله : (إلا اتباع الظن) يقول : علمهم ظن قال : وأنت لا يجوز لك فى وجه أن تقول : المعصوم هو : عاصم فى حال ولكن لو جعلت (العاصم) فى تأويل معصوم كأنك قلت : (لا معصوم اليوم من أمر الله) لجاز رفع (من) قال : ولا ينكر أن يخرج المفعول على فاعل ألا ترى قوله : (من ماء دافق) ^(٦) معناه والله أعلم :

(١) التفسير : ١١/٢٣ ط الحلبى .

(٢) المصدر السابق ٣٠/٢٣ .

(٣) من سورة هود آية رقم (٥٣) .

(٤) من سورة النساء آية رقم (١٥٧) .

(٥) اليعافير : جمع يغفور بفتح ابناء أو ضمها وهو الطبى الأعفر الذى لونه لون التراب - العيس : الإبل .

(٦) من سورة الطارق آية رقم (٦) .

مدفوق وقوله : (فى عيشة راضية) ^(١) معناها : مرضية قال الشاعر :
دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحِّلْ لِبُغْيَتِهَا واقْعُدْ فَإِنَّ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
ومعناه : المكسوّ

وقال بعض نحوي البصرة : (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) على : (لكن من رحم) ويجوز أن يكون على : لا إذا عصمة أى : معصوم ويكون : إلا من رحم رفعا بدلا من العاصم .

ثم يقول الطبرى بعد ذلك : ولا وجه لهذه الأقوال التى حكيتها عن هؤلاء لأن كلام الله تعالى إنما يوجه إلى الأفصح الأشهر من كلام من نزل بلسانه ما وجد إلى ذلك سبيل ولم يضطربنا شئ إلى أن جعل (عاصما) فى معنى (معصوم) ولا أن نجعل (إلا) بمعنى (لكن) إذ كنا نجد لذلك فى معناها الذى هو معناه فى المشهور من كلام العرب مخرجا صحيحا وهو ما قلنا : من أن معنى ذلك : قال نوح لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمتنا فأنجانا من عذابه كما يقال : (لا منجى اليوم من عذاب الله إلا الله) ولا مطعم اليوم من طعام زيد إلا زيد . فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم ^(٢) .

من هذا كله يظهر لنا أن الطبرى واسع الاطلاع على آراء نحاة البصرة ونحاة الكوفة ولم يكن مجرد ناقل لهذه الآراء وإنما كان يناقش ويرجع يختار عن علم وبصيرة دون تعصب لأى من الطرفين بل ربما دفعه اطلاعه الواسع وعلمه الغزير بلغة العرب إلى رفض آراء الفريقين واختيار ما يراه أليق بمعانى كلام الله تبارك وتعالى ما دام له وجه صحيح فى اللغة كما رأينا . هل كان الطبرى كوفيا ؟

لهذا نرى أنه لا صحة لما يراه صاحب رسالة (الطبرى المفسر) من أن الطبرى كان متعصبا للمذهب الكوفى وذلك حيث يقول : (فأما تأثره بالنحو الكوفى وترجيحه إياه وإيثاره له على المذاهب النحوية الأخرى فإنما نجد له شواهد كثيرة فى تفسيره) ^(٣) ولا صحة كذلك لما يقوله الدكتور عبد الفتاح شلبى : من (أن الطبرى معدود من النحويين الكوفيين) ^(٤)

(١) من سورة الحاقة آية رقم (٢١) .

(٢) التفسير : ٣٣٢/١٥ وما بعدها ط دار المعارف .

(٣) الطبرى المفسر للدكتور سيد أحمد خليل : (١٨٨) .

(٤) أبو على الفارسى : ص (١٠٨) .

ولعل السبب الذى أدى إلى ذلك الفهم ما ورد فى معجم الأدباء ^(١) من ذكر المناقشة التى دارت بين أبى بكر بن مجاهد وبين أبى العباس ثعلب حيث شهد للطبرى بأنه : من حذاق الكوفيين .

وربما كانت للطبرى دراسة واسعة للمذهب الكوفى فى بداية حياته العلمية ولكنها على أية حال لم تجعله متعصبا للكوفيين فقد رأينا من الأمثلة التى سقناها أن الطبرى لم يكن منحازا للمذهب الكوفى ولم ترجح عنده كفة أحد المذهبين على الآخر وفى كثير من الأحيان كان يناقش الكوفيين مناقشة تظهر فيها الدقة والعمق ويخطئهم فيما ذهبوا إليه وترجح عنده آراء البصريين .

ومن ذلك ما ذكره فى تفسيره لقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ^(٢) . حيث يقول فى معنى : (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) اختلفت القراءة فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراءة أهل المدينة والحجاز والبصرة فصرهن إليك بضم الصاد من قول القائل : صرت هذا الأمر إذا ملت إليه أصور صورا ويقال : إني إليكم لأصور أى مشتاق مائل ومنه قول الشاعر :
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا فِي تَلَفُّتِنَا يَوْمَ الْفِرَاقِ إِلَى أَحْبَابِنَا صُورٌ
وهو جمع أصور وصوراء وصور مثل : أسود وسوداء وسود ومنه قول الطرماح :
عفائف الأذيال أو أو يصورها هوى وهوى للعاشقين صروع
يعنى بقوله : أو أو يصورها هوى : يملها .

فعنى قوله سبحانه : (فصرهن إليك) اضممهن إليك ووجههن نحوك كما يقال : صر وجهك الى أى أقبل به إلى ومن وجه قوله (فصرهن إليك) إلى هذا التأويل كان فى الكلام عنده متروك قد ترك ذكره استغناء بدلالة الظاهر عليه ويكون معناه حينئذ عنده : قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم قطعهن ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا .

(١) ٦٠/١٨ .

(٢) من سورة البقرة آية رقم (٢٦) .

وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك إذا قرىء بضم الصاد : قطعهن ثم يقول الطبرى : وقرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة : (فصرهن إليك) بالكسر بمعنى : قطعهن .
ثم يقول : وزعم بعض نحويي الكوفة أنه لا يعرف لقوله (فصرهن) ولا لقراءة من قرأ بضم الصاد وكسرهما وجها في التقطيع إلا أن يكون (فصرهن إليك) فى قراءة من قرأه بكسر الصاد من المقلوب وذلك أن تكون لام فعله جعلت مكان عينه وعينه مكان لامه فيكون من صرى يصرى صريا فإن العرب تقول : بات يصرى فى حوضه إذا استقى ثم قطع واستقى .
فأما نحويو البصرة فإنهم قالوا : (فصرهن إليك) سواء معناه إذا قرىء بالضم من الصاد وبالكسر فى أنه معنى به فى هذا الموضع : التقطيع وهما لغتان احدهما : صار يصور والأخرى : صار يصير .

إلى أن يقول الطبرى : وهذا القول الذى ذكرناه عن البصريين من أن معنى الضم فى الصاد من قوله : (فصرهن إليك) والكسر سواء بمعنى واحد وأنها لغتان معناهما فى هذا الموضع فقطعهن وأن معنى (إليك) تقديمها قبل (فصرهن) من أجل أنها صلة (فخذ) أولى بالصواب من قول الذين حكينا قولهم من نحوي الكوفيين الذين أنكروا أن يكون للتقطيع فى ذلك وجه مفهوم إلا على معنى القلب الذى ذكرت لإجماع جميع أهل التأويل على أن معنى قوله : (فصرهن) غير خارج من أحد معنيين : إما قطعهن وإما اضممهن إليك بالكسر قرىء ذلك أو بالضم ففى إجماع جميعهم على ذلك غير مراعاة منهم كسر الصاد وضمها ولا تفريق منهم بين معنى القراءتين أوضح الدليل على صحة قول القائلين من نحوي أهل البصرة فى ذلك ما حكينا عنهم من القول وخطأ قول نحوي الكوفة (١) .

فقد رأينا كيف ناقش الطبرى وفند مزاعمهم فى دعوى القلب مرجحا ما قرره نخاة البصرة فى التسوية بين القراءتين لأن ذلك يوافق ما أجمع عليه المفسرون وهم أعلم الناس بمعانى كتاب الله .

وكثيرا ما يعارض الطبرى (الفراء) ويناقشه وهو من أعلام مدرسة الكوفة وكتابه : (معانى القرآن) أحد المصادر الهامة للطبرى فى تفسيره ومن ذلك ما جاء فى تفسيره لقوله تعالى فى أول

(١) التفسير : ٥٠٠/٥ - ٥٠١ ط المعارف .

سورة البقرة : (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) .

حيث قال عقب عرضه للآراء النحوية فى : (هُدًى) : وقد زعم بعض المتقدمين فى العلم بالعربية من الكوفيين ^(١) أن (آلم) مرافع (ذلك الكتاب) بمعنى هذه الحروف من حروف المعجم ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه إليك ثم نقض ذلك فأسرع نقضه وهدم ما بنى فأسرع هدمه فزعم : أن الرفع فى (هُدًى) من وجهين والنصب من وجهين وأن أحد وجهى الرفع : أن يكون الكتاب نعنا لذلك والهدى فى موضع رفع خبر لذلك كأنك قلت : ذلك هدى لا شك فيه قال : وإن جعلت لا ريب فيه خبره رفعت أيضا هدى يجعله تابعا لموضع لا ريب فيه كما قال الله جل ثناؤه : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) ^(٢) ، كأنه قال : (هذا كتاب هدى من صفته كذا وكذا) ، قال : وأما أحد وجهى النصب فأن تجعل الكتاب خبرا لذلك هدى من صفته كذا وكذا) ، قال : وأما أحد وجهى النصب فأن تجعل الكتاب خبرا لذلك وتنصب هدى على القطع ^(٣) لأن هدى نكرة اتصلت بمعرفة وقد تم خبرها فنصبها لأن النكرة لا تكون دليلا على معرفة وإن شئت نصبت (هُدًى) على القطع من الهاء التى فى (فيه) كأنك قلت : لا شك فيه هاديا ، فترك الأصل الذى أصله فى (آلم) وأنها مرفوعة بذلك الكتاب ونبذه وراء ظهره واللازم كان له على الأصل الذى أصله ألا يحيز الرفع فى (هدى) بحال إلا من وجه واحد وذلك من قبل الاستئناف إذ كان مدحا فأما على وجه الخبر (لذلك) أو على وجه الاتباع لموضع (لَا رَيْبَ فِيهِ) فكان اللازم له على قوله أن يكون خطأ وذلك أن (آلم) إذا رافعت (ذلك الكتاب) فلا شك أن (هدى) غير جائز حينئذ أن يكون خبرا (لذلك) بمعنى المرافع له أو تابعا لموضع (لَا رَيْبَ فِيهِ) لأن موضعه حينئذ نصب لتمام الخبر قبله وانقطاعه بمخالفته إياه عنه . ^(٤)

المفسرون أعلم من النحاة بمقاصد القرآن :

المنهج الذى سار عليه الطبرى فى الاستدلال بالنحو : أنه إذا تعارضت آراء النحاة مع

(١) انظر معانى القرآن للفراء : ١٠/١ .

(٢) من سورة الأنعام آية رقم (٩٢) .

(٣) الحال .

(٤) التفسير : ٢٣١/١ - ٢٣٢ ط دار المعارف .

آراء علماء التفسير فإنه يرفض آراء النحاة ويصوب آراء المفسرين لأنهم في تقديره هم الأعلام بمعاني كتاب الله والأجدر بإدراك مقاصده ومراميه .

ومن أمثلة ذلك تصويبه لرأى (قتادة) عطرجه لآراء النحاة وذلك في تفسيره لقوله تعالى : (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)^(١) حيث يقول : واختلف في الذى وقع عليه اسم القسم فقال بعضهم : وقع القسم على قوله : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) ثم يذكر الطبرى : أن هذا الرأى مروى عن قتادة . ويقول : وكان بعض أهل العربية يقول : (بل) دليل على تكذيبهم فاكتفى (بيل) من جواب القسم وكأنه قيل : (ص) ما الأمر كما قلتم بل أنتم في عزة وشقاق . وقال بعض نحوي الكوفة : قد زعم قوم أن جواب (والقرآن) قوله : (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) قال : وذلك كلام قد تأخر عن قوله : (والقرآن) تأخرا شديدا وجرت بينهما قصص مختلفة - فلا نجد ذلك مستقيما في العربية والله أعلم .

قال : ويقال : إن قوله : (والقرآن) يمين اعترض كلام دون موقع جوابها فصارت جوابها للمعترض ولليمين فكأنه أراد (والقرآن ذى الذكر) لكم أهلكنا فلما اعترض قوله : (بل الذين كفروا في عزة) صارت كم جوابا للعزة ولليمين قال : ومثله قوله تعالى : (والشمس وضحاها) اعترض دون الجواب قوله : (ونفس وما سواها فألهمها) فصارت (قد أفلح) تابعة لقوله : (فألها) وكفى من جواب القسم فكأنه قال : (والشمس وضحاها لقد أفلح) . والصواب من القول في ذلك عندى القول قاله قتادة وأن قوله : (بل) لما دلت على التكذيب وحلت محل الجواب استغنى بها عن الجواب إذ عرف المعنى فعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك (ص والقرآن ذى الذكر) ما الأمر كما يقول هؤلاء الكافرون بل هم في عزة وشقاق وقوله : (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) يقول تعالى ذكره : بل الذين كفروا بالله من مشركى قريش فى حمية ومشاقة وفراق لمحمد صلى الله عليه وسلم وعداوة^(٢) .

(١) من سورة (ص) : آية رقم (١ - ٢) .

(٢) التفسير ١١٧/٢٣ - ١١٨ ط مصطفى الحلبي .

التمكن من اللغة وقواعدها أساس لفهم القرآن :

قد أجاد الطبرى استخدام النحو كوسيلة لفهم القرآن وتوضيح معانيه والكشف عن مدلولات حروفه وكلماته فى قوة وعمق (فهو حين يتناول النحو فى النص القرآنى لا يتناوله مشغولاً بصنعة النحو وتفريعاته ولكنه مهتم بمنطق الآية القرآنية ولماذا ترابطت كلماتها بهذه الكيفية أو تلك) ^(١) ارتبطا بحقق الإعجاز وأن كل كلمة فى القرآن وضعت فى مكانها بحيث لا يغنى عنها فى هذا المكان سواها .

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى تفسيره لقوله تعالى : (نِسْأَوْكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُّوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) ^(٢) ، فقد بنى الطبرى ما رجحه فى معنى لآية على أساس نحوى وهو الفرق فى الاستعمال بين : (أَنَّى) و (أين) و (كيف) و (متى) وذلك حيث يقول :

اختلف أهل التأويل فى معنى قوله : (أَنَّى شِئْتُمْ) .
فقال بعضهم : معنى (أَنَّى) كيف .

وقال آخرون : معنى : (أَنَّى شِئْتُمْ) من حيث شِئْتُمْ وأى وجه أحببتهم . ! وقال آخرون :
معنى قوله : (أَنَّى شِئْتُمْ) متى شِئْتُمْ .
وقال آخرون : بيان معنى ذلك : أين شِئْتُمْ وحيث شِئْتُمْ .
ثم يقول الطبرى :

والصواب من القول فى ذلك عندنا قول من قال : معنى قوله : (أَنَّى شِئْتُمْ) من أى وجه شِئْتُمْ وذلك أن (أَنَّى) فى كلام العرب كلمة تدل إذا ابتدئ بها فى الكلام على المسألة عن الوجوه والمذاهب فكأن القائل إذا قال لرجل : أَنَّى لك هذا المال يريد من أى الوجوه لك ولذلك يجيب الجيب فيه بأن يقول : من كذا وكذا ، كما قال تعالى ذكره مخبراً عن زكريا فى مسأله مريم : (أَنَّى لك هذا قالت هو من عند الله) ^(٣) ، وهى مقاربة : أين وكيف فى المعنى ولهذا تداخلت معانيها فأشكلت (أَنَّى) على سامعيها ومتأوليها حتى تأولها بعضهم بمعنى : أين وبعضهم بمعن : كيف وآخر بمعنى : متى وهى مخالفة جميع ذلك فى معناها وهن لها

(١) مناهج فى التفسير : ص (٤٠٢) .

(٢) من سورة البقرة آية رقم (٢٢٣) .

(٣) من سورة آل عمران (٣٧) .

مخالفات وذلك : أن (أين) إنما هي حرف استفهام عن الأماكن والمحال - ولو قال قائل
 لآخر : كيف أنت ؟ لقال : (صالح أو بخير أو في عافية) وأخبره عن حاله التي هو فيها فيعلم
 حينئذ أن كيف مسألة حال المسئول عن حاله ، ولو قال له : أنى يحيي الله هذا الميت ؟ لكأن
 الجواب أن يقال : من وجه كذا وجه فيصف قولاً نظير ما وصف الله تعالى ذكره للذي قال :
 (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) ^(١) فعلاً ^(٢) حين بعثه بعد مماته .

وقد فرقت الشعراء بين ذلك في أشعارها فقال الكميّ بن زيد :

تذكر من أنى ومن أين شربه يؤامر نفسه كذى الهجمة الإبل ^(٣)
 وقال أيضاً :

أنى ومن أين - آبك الطرب ؟ من حيث لا صبرة ولا ريب
 فيجاء بأنى للمسألة عن الوجه وبأين للمسألة عن المكان فكأنه قال : من أى وجه ومن
 أى موضع راجعك الطرب .

والذى يدل على فساد قول من تأول قول الله تعالى ذكره : (فأتوا حرثكم أنى شئتم كيف
 شئتم - أو تأولوه بمعنى : حيث شئتم - أو بمعنى : متى شئتم) أو بمعنى : أين شئتم أن قائل لو
 قال لآخر : أنى تأتى أهلك ؟ لكأن الجواب أن يقول : من قبلها أو من دبرها كما أخبر الله
 تعالى ذكره عن مريم إذ سئلت : (أنى لك هذا) أنها قالت : (هو من عند الله) ^(٤) .
 وإذا كان ذلك هو الجواب فمعلوم أن معنى قوله تعالى ذكره : (فأتوا حرثكم أنى شئتم)
 إنما هو : فأتوا حرثكم من حيث شئتم من وجوه المأتى - وأن ما عذا ذلك من التأويلات فليس
 للآية بتأويل . وإنما قال تعالى ذكره : (حرث لكم) فأتوا الحرث من أى وجوهه شئتم وأى
 محترث فى الدبر فيقال : اثنته من وجهه ؟ .

وبين بما بينا صحة معنى ما روى عن جابر وابن عباس : من أن هذه الآية نزلت فيما كانت

(١) من سورة البقرة آية رقم (٢٥٩) .

(٢) قوله : فعلاً : مفعول قوله : نظير ما وصف الله .

(٣) أمره يؤامره : شاوره - ونفسه : جعل النفس نفسين ، لأنها تأمر بالشىء وتنهى عنه - والهجمة : القطعة من الإبل من
 التسعين إلى المائة - ويقال رجل إبل : إذا كان حاذقاً بمصلحة الإبل - التفسير : ٤/٤١٥ هامش ط دار المعارف .

(٤) من سورة آل عمران آية رقم (٣٧) .

اليهود تقوله للمسلمين : (إذا أتى الرجل المرأة من دبرها ^(١) في قبلها جاء الولد أحول ^(٢)) .
ويقول الأستاذ محمود شاكر معلقا :

حجة أبى جعفر فى هذا الفصل من أحسن البيان عن معانى القرآن وعن معانى ألفاظه وحروفه ، وهى دليل على أن معرفة العربية وحذفها والتوغل فى شعرها وبيانها أصل من الأصول لا يحل لتكلم فى القرآن أن يتكلم فيه حتى يحسنه ويحذفه ^(٣) ! رحم الله ابن جرير الطبرى بقدر ما بذل من جهد فى دراسته كتاب الله وتيسير معانيه للطلاب والراغبين .

(١) من الناحية والجهة .

(٢) التفسير : ٣٩٨/٤ وما بعدها - دار المعارف .

(٣) المرجع السابق ص : (٤١٦) هامش .

مراجع البحث :

- ١ - أبو علي الفارسي - للدكتور إسماعيل شلبى - مطبعة مصر .
- ٢ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن تفسير الطبرى بتحقيق المرحوم الشيخ أحمد شاكر والأستاذ محمود شاكر - دار المعارف - ١٩٦٠ م .
- ٣ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن - تفسير الطبرى - مطبعة مصطفى الحلبي - ١٣٧٣ هـ .
- ٤ - شرح ابن عقيل - بتحقيق المرحوم الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - ١٣٩٤ هـ .
- ٥ - معانى القرآن - للفراء - نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- ٦ - معجم الأدباء - ياقوت الحموى - مطبوعات دار المأمون .
- ٧ - مناهج في التفسير - للدكتور مصطفى الصاوى الجوينى - شركة الإسكندرية للطباعة والنشر .
- ٨ - نشأة النحو - للمرحوم الشيخ محمد الطنطاوى - مطبعة وادى الملوك .